هوية الطفل العربى بين العولمة والإنترنت

أ. السيد نجم
نائب رئيس اتحاد كتاب الإنترنت العرب

مع بدايات الألفية الثالثة حاصرتنا "العولمة" كأننا أمام كائن غريب يغزونا فجأة، إنها الحقيقة الجديدة التي يستشعرها العامة والخاصة. لقد أصبح مصطلح "العولمة" على درجة من الشيوع والانتشار بحيث يكفى الإشارة إليه لتتجدد الأسئلة.. هل هى نهاية التاريخ كما يقول "فوكوياما" اليابانى الأصل؟ أم هى صدام الحضارات المتوقع كما يقول "صامويل هنتينجتون"؟

مع الثورة المعلوماتية وإمكانات ثورة الاتصالات الجديدة.. اكتشف الإنسان المأزق. عرف أن زيادة السكان على الأرض تنمو بمتوالية هندسية، وأن المعرفة الإنسانية تتضاعف مرة كل ١٨شهرًا (بل تقل تلك الفترة بمرور الزمن)، وأن ثورة التكنولوجيا الجديدة تغزو جسده وترسم خريطة جينية تحدد مستقبله! وقد شاع من قبل الشعار : "فكر عالميًا ونفذ محليًا"، وأن طبيعة السوق الجديدة هى اعتبار المواد الخام والمنتجة كلها ذات طبيعة دولية، مع سقوط نظرية الاقتصاد الموجه، وتغير فى خريطة ميزان القوى السياسية فى العالم.

تخوف البعض من آثار العولمة، وهى تتمثل فى اضمحلال دور الدولة الذى ينحصر فى وضع السياسات.. التخوف من التغييرات الاجتماعية المتوقعة عن سقوط وارتفاع اقتصاد الدول على حسب قدرتها على مواجهة أو التعامل مع مفاهيم آليات السوق الجديدة.. الخوف على شعار بيئة عالمية نظيفة، كما تتبدى بعض المخاوف الأمنية وظهور بذور جماعات إرهابية وغيره.

لعل أهم الأسئلة : ماذا عن الهوية.. عن الذات الجمعية والانتماء الوطنى والقومى؟ ولا إجابة إلا القول بأننا نعيش عصرًا جديدًا، بحيث يجب ألا ننشغل إلا بالبحث فى المزيد من عوامل الربط من أجل المزيد من الانتماء بالقبض على قيم الهوية الأصيلة.

أما "الثقافة" وعلاقتها أو تأثرها بالعولمة فهو محور الارتكاز هنا، فسيطرة التكنولوجيا الفائقة ربما تخلق الانحلال الخلقى.. التفكك الأسرى.. العنف وأشكال جديدة من الجريمة.. وربما الانتحار. ربما بسبب زوال الفاصل بين الواقع الحقيقى والخيال، أو غيرها.

إذا كانت الثقافة هى ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعرف، وكل المعتقدات والعادات التى يكتسبها الفرد من حيث هو عضو فى مجتمع.. فهى تعنى أن الثقافة تحمل فى طياتها : الذاتى المجرد مثل المعتقدات والمعرفة، بجانب التقييمى مثل الأخلاق والسلوك والتقاليد.. كما أنها مستقلة عن الفرد، أى تكتسب بالممارسة الحياتية والتعلم، فهى ليست فطرية أو غريزية. كما أن الثقافة تتبدى من خلال شكلين : مادى (فنون وآداب، وحتى السلع)، ولا مادى (السلوك والأفكار والمعتقدات.. إلخ). لذا تعد الخصوصية الثقافية ممكنة ومطلوبة أيضًا لكونها العمود الفقرى للهوية.

ترى هل البحث عن الهوية الآن فى مقابل كل التخوفات من العولمة يعتبر نقيض القول والفعل مع المتغيرات.. أو دعوة للانغلاق فى مقابل العولمة والانفتاح؟

فإلى جانب الثقافة، يعد الانتماء والوطنية من جوهر الهوية. فالوطنية ثقة بالأنا الجمعية، لمجموعة تعيش على أرض مشتركة، يشعرون بالولاء والانتماء والالتزام بمجموعة المفاهيم الرابطة مع استيعاب لذاكرة جمعية تتمثل فى جوهر العادات والتقاليد والقيم العامة.

كما أن الوطنية ليست التعصب ضد الآخر، ولا الغرور بالذات ولا الانغلاق على الذات، ولا هى دعاوى باطلة للاعتداء على الآخر. الوطنية هي محور الارتكاز لاستيعاب الماضى والانطلاق إلى المستقبل.. ولا نتصورها ضد العولمة، بل انفتاح على العالم بلا غرور ولا انبهار أو إحساس بالدونية. وبالتالى انفتاح على الإنسانية بكل مفاهيمها وأننا جزء من عالم أرحب. لذا فالمشاركة مع الآخر وبلا افتعال بالتشدق بمصطلحات أكبر هو جوهر العلاقة بين الهوية والعولمة.

لكن كيف يمكننا الدخول فى فعاليات العولمة والمشاركة، مع التمسك بجوهر الهوية.. مسلحين بثقافتنا ومزكين انتماءاتنا وثوابتنا؟

لا يتم ذلك إلا بعد التسلح : بالوعى بملامح هذا العالم الجديد، ومفاهيمه وملامحه.. وأن نكون على أرض صلبة وواعية لأمراض العصر مثل الإيدز كمرض بيولوجى، وأمراض السوق الحرة كمرض اقتصادى.. أن تصبح ثورة المعلومات إلى جانبنا وليست ضدنا، بالمشاركة فى وسائلها التكنولوجية، والتأهيل العلمى والمعرفى لاستيعاب المعلومات والتعامل معها بموضوعية علمية للاستفادة منها بأكبر قدر وليس للوقوف أمامها.. وفى كل الأحوال مسلحون بحب الوطن، بالانتماء الموضوعى الإيجابى وليس العنصرى، مع الاحتفاظ بمجموعة الثوابت القيمية العليا. والآن ماذا علينا أن نفعل؟

الطفل هو البداية.. الغاية والوسيلة

لقد وجد "الطفل" العربى/ المسلم الموقع المناسب من الاهتمام فى فكر وعمل رجال الفكر والعقيدة إبان ذروة ونضج الحضارة العربية الإسلامية. يرجع ذلك إلى عدة عوامل : الشعور الإنسانى للمجتمع والفرد الناضج بالبنوة والأمومة، وهو ما أشار إليهما القرآن والسنة فى أكثر من موضع.. اهتمام الشريعة الإسلامية بشئون الطفل، فى أحكام محددة، ومازالت مرجعًا للعديد من القوانين المدنية حتى الآن. اهتمام المؤسسة الدينية بالطفل، وهو ما تبدى فى العديد من السلوكيات والظواهر التربوية والاجتماعية، وفى العديد من المنجزات الثقافية منها.. ما ألفه "ابن الجزار" الذى يعد أول منجز علمى فى مجال الثقافة الصحية للطفل "سياسة الصبيان وتدبيرهم"، الذى قال فيه: "إن معرفة سياسة الصبيان وتدبير صحتهم باب عظيم الخطر جليل القدر، ولم أر لأحد من الأوائل المتقدمين المتطببين كتابًا كاملاً فيه".

أما الطبيب الفيلسوف "ابن سينا"، فقد أنجز للطفل جزءًا هامًا فى كتابه الشهير في الطب المسمى ب"القانون". كما كتب "الرازى" رسالة علمية مفصلة فى أمراض الأطفال والعناية بهم، ثم كتب "القرطبى" فى موضوع "خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين". أما "الطبرى" فقد أفرد فى كتابه "كناشة المعالجة البقراطية" مقالا فى طب الأطفال.. يكفى أن نشير إلى أن الاهتمام بطب الطفل فى أوروبا، وأن مصطلح طب الطفل فيها لم يستخدم إلا فى القرن التاسع عشر فقط! وفى مجال التربية والرعاية الاجتماعية للطفل فى أكثر من كتاب، مثل "فاتحة العلوم"، و"أيها الولد"، و"إحياء علوم الدين".

كما أعتبر الإمام الغزالى الطفل جزء من نفس أبيه، يحفظ ويصان كما اعتبره أمانة ومسئولية أمام الله تعالى. وقرر أن النفس تخلق ناقصة وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم، حيث انه يقرر أن سلوك الخلق قابل للتغيير والتعديل.

كما شهد الوطن العربي منذ أواخر القرن الميلادى الماضى (القرن العشرين) طفرة غير مسبوقة فى مجال الاهتمام بالطفل على المستوى المؤسسى العام. فيما تعددت وسائل التعامل مع الطفل العربى مؤخرًا، وهو ما ارتبط بالتقدم التكنولوجى لوسائل الاتصال والإعلام، وبالتالى لم تعد الجدة ثم الأم والأب وحدهم مصدر التلقين، ولا حتى المدرسة كمؤسسة تربوية تعليمية. ها هو ذا التليفزيون، الإنترنت وشبكته السحرية، الفيديو، وغيرها، ولن نغفل الدوريات والكتاب والمدرسة.

إذا كانت القيم العامة : القيم الدينية الإيمانية، القدوة الصالحة، التعاون، الأمانة، الطاعة، الوفاء، الصداقة، التواضع، الجمال، التفكير المنطقى.. وغيرها من الأمور الواجب مراعاتها، فهى أكثر أهمية فى التناولات الأدبية التى تخاطب الطفل.. والتى فى مجملها تزكى جوهر الانتماء والهوية. ولتوصيل دلالة معرفية هامة تتمثل فى ثلاثة نماذج للمعرفة فى مجال الاقتراب من عالم الطفل، ألا وهى "التعلم / التذكر / التفكير".

فالتعلم يتضمن أن تكون المعلومات على درجة كافية من الجدة يتم عرضها مرة واحدة أو عدة مرات.. أي أن التعلم يتم بالاكتساب. أما التذكر فيشمل تخزين المعلومات واسترجاعها، ولا يتم هذا إلا بعد مرحلة التعليم الأساسى، والمعلومات هنا ليست جديدة.

وعندما تكون المعلومات جديدة نسبيًا، فإن هذه المعلومات الجديدة تحتاج إلى النشاط التفكيرى، وبذلك يصبح التفكير عملية تجهيز للمعلومات، ولا يحتاج إلى عروض متتابعة للمعلومات الجديدة كما هو الحال فى التعلم. وفى هذه الحالة يجب توافر عنصر "الوعى" بالذات والآخر مع توافر عنصر الرغبة فى التجاوز والإنجاز.

ماذا نقول ونكتب للطفل؟

يبقى دومًا السؤال : ماذا نقول ونكتب للطفل؟ فالعولمة لا تنظر إلى الماضى، تشير إلى الراهن وتتحدث عن المستقبل.. لعلها بذلك تقول تخلو عن ذاكرتكم وشخصيتكم (عن الهوية).. فهى تسعى لخلق عالم آخر جديد : بلا خصوصية، بلا مركز، بلا تواصل أو انتماء، بلا مفهوم واضح عن الوطن أو الأسرة.. إنه عالم استهلاكى!

أما وقد تعددت وسائل التعامل مع الطفل العربى مؤخرًا، وهو ما ارتبط بالتقدم التكنولوجى لوسائل الاتصال والإعلام. لقد أصبحت لأجهزة التليفزيون والكمبيوتر مع الإنترنت (إلى جانب السينما والمسرح بدرجات أقل كثيرًا) الأثر الفاعل الأكثر تأثيرًا فى الطفل.. حتى كانت أمراض تعرف بإدمان تلك الأجهزة، تؤثر على وجدان وتفكير وصحة الطفل مباشرة.

الصورة ليست قاتمة، تتوقف على عوامل توظيف تلك التقنيات التكنولوجية. هناك برامج إيجابية مع أجهزة الكمبيوتر : برامج تعليم المبادىء والقيم الأساسية.. برامج تعليم اللغات لأطفال ما قبل المدرسة.. برامج ألعاب الأرقام أو الحساب ورسومات الهندسة.. برامج علمية متخصصة في المجالات المختلفة من الطب إلى الألعاب الرياضية، ويبقى الإنترنت.

بداية لا يمكن إلا أن نعترف بالممكن ونخاطب الصغير كانسان قادر على "الاختيار" وليس تابعًا لأفكارنا جبرًا. فحبس بعض الوسائل الإعلامية الجديدة عن الصغار (كما يتبع بعض الآباء) يزيد الطفل عنادًا.. أن نصارح الصغير بأن لكل شئ فوائده وأضراره حتى "الدواء المعالج

للأمراض" هو البداية، ففي عصر السماء المفتوحة لن يستطع أحد من منع الصغار على ارتياد المحطات الفضائية (مثلاً)، وليس عليهم سوى اختيار المناسب منها بالإقناع. وما يقال عن الفضائيات يقال عن شبكة الإنترنت.. وغيرها.

لتأتى معاملة الآباء للصغار كخطوة عملية وإيجابية لتحقيق الهدف.. ألا نعامل الصغير على أنه رجل أو آنسة بل على قدر عقولهم، حتى يعيش الطفل طفولته، ولكل مرحلة طفولة خصائصها.. أن تظل معاملة البنت أكثر رقة وأقل خشونة من معاملة الولد، مع بقاء تحميلهما نفس القدر من المسئولية.. مبدأ الثواب والعقاب هو المفتاح السحرى للتعامل الإيجابى مع الطفل، وهو ما وافقته الأديان السماوية.. القدوة العملية من الوالدين هى البديل العملى عن التلقين المباشر لمفاهيم القيم العليا التى نرجو غلبتها فى السلوك الخاص والعام، وهى وسيلة تنمية الوازع الضميرى عند الصغار.. إذا كانت الملكات الخاصة والمواهب هبة سماوية يضعها الخالق فى الإنسان، فلا يبقى سوى التنقيب عنها باعتبارها جوهر "التربية" وهدفها..

ومع التفاصيل الجزئية الكثيرة.. فالوصفة السحرية هى أن يقل كلام الأبوين فى التلقين، ويكثر الفعل سواء بالسلوك المباشر منها أمام الطفل، أو فى التعامل مع الطفل.

هل يمكن أن نحدد محاور مخاطبة الطفل حول الهوية؟

إجمالاً محاور ثقافية عامة، وأدبية، وإعلامية، ودينية، وسياسية، وتعليمية، وفنية. فثقافة الطفل العامة هى مجموعة المعارف المكتسبة من البيئة التى يعيش فيها الصغار، وتتضمن المهارات والقيم، ثم العلاقات المتشابكة التى تقابل الصغار، وكلها ذات ملامح اجتماعية ودينية وربما علمية واقتصادية، وإن لم يفهمها الصغير بتلك المسميات. ولا يمكن إغفال أدب الطفل الذى ينتجه الطفل نفسه.. فهو المرآة التى نطل منها نحن الكبار على عالم الصغار، وهو جعبة المشاعر والأفكار بل وخبرات الطفولة التى يجب أن لا نستهين بها.

بداية لا يمكن إلا أن نعترف بالممكن ونخاطب الصغير كانسان. لتأتى معاملة الآباء للصغار كخطوة عملية وإيجابية لتحقيق الهدف / الأهداف..

أولاً : التعرف على التراث الشفهى

التراث الشفهى مهدد بالضياع، ليس على مستوى الوطن العربى فقط، ربما يعتبر أحد المتغيرات أو المؤثرات المباشرة لثورة التكنولوجيا المعاصرة. طغت وفاضت المحطات التليفزيونية الفضائية والأرضية، ثم المحطات الإذاعية، وغيرها من وسائل الترفيه والاتصال.. فى مقابل إهمال غير مقصود من الأفراد لتداول العناصر التراثية.. مع رواج ملامح العناصر الاستهلاكية الجديدة بفضل شركات الإعلان التى تروج لكائنات جديدة بلا هوية، باتت أكثر شيوعًا وتأثيرًا! يعتبر التراث الثقافى الشفهى المتمثل فى الأغانى الشعبية والأمثال والأهازيج والألغاز والحواديت من المحاور الثقافية الفاعلة فى تربية وتنشئة الطفل.. حيث تدعو إلى ترسيخ القيم النبيلة، وتنشيط النفوس بالمرح والحكمة، فضلاً عن الإحساس بالأصالة والانتماء. وتعد أغانى الأم لوليدها فرعا من أصل لا يستهان به فى هذا المجال. على تنوع العناصر التراثية قد تبدو فى إقليم تراثى ما أو بلد ما متوحدًا، إلا أن الباحثين بمصر يشيرون إلى تعدد الوحدات التراثية فى العنصر الواحد، وهو ما اعتبره بعض الباحثين الأجانب من الظواهر غير المبررة. إلا أن الباحث

"درويش الأسيوطى" يرى أن التنوع التراثى فى مصر يرجع إلى التنوع السكانى، والهجرات التاريخية القديمة، ومهما كان هذا التنوع فهو يرتكز على أساسيات ثابتة مشتركة.

قال البعض أنه لا توجد فى الوطن العربى "عروسة" مشتركة أو واحدة، على العكس الكثير من بلدان العالم، وهو ما أكده الباحث (درويش الأسيوطى) ولم ينفه، بل برره وأبرزه فى تبرير هذا العنصر التراثى.. توجد "عروسة البخور" التى تستخدم فى "الرقى" وهى عادة قديمة، وتصنع من الورق ثم تغرس فيها (فى عيونها) الإبر درءًا للحسد واتقاء شر العين.. و"عروسة المولد" التى تصنع من السكر، احتفالاً بالمولد النبوى الشريف منذ العهد الفاطمى. والطريف أنها تسللت إلى الموالد المسيحية بمصر كما فى احتفالات مولد "القديس أبو جورج" بصعيد مصر، وقد تشكلت على شكل السيدة العذراء.. ثم "عروسة الطين" التى يصنعها الصغار على ضفاف نهر النيل، وتصنع من الطين.. كذلك توجد عروسة البوص أو الغاب، وعروسة القمح.. وغيرها.

تتعدد العناصر ومنها الأهازيج الشعبية، وبالذات تلك التى تغنى للمواليد والأطفال. وهى مقسمة إلى عدد من الأقسام حسب المناسبة التى تغنى فيها.

أهازيج التنويم.. وهى تسمى بعدد من المسميات "الدب" بتشديد الدال وفتحها لأن الأم تدب على صدر طفلها برفق، وتربت عليه، وهو ما يعرف ب"التهنين"، وهى على إيقاع واحد ولحن واحد. من تلك الأهازيج : " يا ولد يا زين / يا كحيل العين / عندنا بنتين / يا ولد.. تتجوزشى" وتتابع بحيث تلزم بمخاطبة الذكور من الأطفال، مع الحرص على تأكيد الجمال الذكورى. تتميز جملة أهازيج الأولاد بعدد من الملامح.. تكرار كلمة "الولد" فى المقطوعة، وهو ربما تعبيرًا عن الاعتزاز بكونه ولدًا، تلقين القيم الاجتماعية مثل رعاية أبويه. كما توعد الأم طفلها بالكثير مثل بناء البيت بالفضة أو الذهب : "لأبنى لك بيتك بفضة / وأسقفه لك بالدهب"

كما يلاحظ التكرار فى بعض الكلمات والصفات الحميدة التى ترجوها الأم فى ولدها.. ليس فقط الكلمات بل ومعنى المقاطع أيضًا. وهناك بعض الأهازيج التى تعبر فيها الأم عن خوفها من فقد ولدها.. أما بالغرق أو الحرق أو غيره : "...والقنطرة إتهدت، عيونها انسدت، حوشوا ولدى يا ناس". وهناك الأهازيج الحوارية التى تحرص فيها الأم على تلقين الولد الانتباه إلى تعاليم دينه، مثل الانتباه لأغانى "الشاعر" والشاعر هنا هو المداح الشعبى الذى يتغنى بأغانى المديح النبوى، لما فيها من قيم المعتقدات الإسلامية. تقول :

" وان جاك الشاعر.. غديه / وادى له م النقدية فلوس"

ولا تنسى الأم في غنائها صفات الفارس، وأبو زيد الهلالى، ربما تتمنى له أن يكون الشجاع المخلص فى مستقبله. وهكذا لا تنسى الأم أن يبلغ وليدها مبلغ الرجال، فيضع الشال الحرير على كتفه كما الأغنياء من القوم.. وغيرها من مظاهر الثراء والقوة.

وما بين المهد والرجولة يكون الغناء بوسائل تحقيق الفخار والقوة.. مثل التعليم، فتراه يخرج من "الكتاب" بضم الكاف وهو مكان تعليم الصغار القران والعلوم البسيطة الأولى فى القرى، ربما قبل المرحلة المدرسية الرسمية، وربما لشيوعها فى الفترات القديمة وقبل انتشار المدارس الحالية.

أما أهازيج البنات، وإن بدت وكأنها محاورات للدفاع عن قيمة البنت وفضلها، وكذلك مقارنات بين الولد والبنت!

" ما تفرحيش يا أم الولد / بنتى كبرت تاخده / وتسكنه بحرى البلد"

يلاحظ المتابع أن تلك الأهازيج أطول من تلك التى تتغنى للولد، مع وجود عنصر الصراع والحوار على العكس من الكثير التى تتغنى بالولد.

وقد تتغنى الأم لأبتها وقد بلغت مبلغ السيدات أو النساء، وتوصيتها لها بأن تتحلى بقيم القرية والمجتمع والاستقامة.. وأن تكون جميلة وفاتنة حتى تلفت انتباه الفوارس من الرجال. تقول فيما تقول : " يا بنيه يا حد السيف / يا فتنة للخيالة / جابوا عشاكى على جملين / واحتارت فيه الشيالة"

أما وقد بلغت البنت مبلغ الكبار وأصبحت زوجة. فتغنى الأم توصيها بكرامتها ورعاية زوجها وبيتها، وغيرها من الوصايا التى هى فى الأصل قيم المجتمع المرجو. أهازيج الطفل فى النهاية تعد صورة لقيم المجتمع وآرائه، والمرجو منه مستقبلاً أيضًا.. فضلاً عن دورها الأكيد فى التعبير عن الهوية.

"الانتماء" فى أغانى وألعاب الطفل

يعد مفهوم "الانتماء" من أقدم المفاهيم، والتى قد تبدو فطرية أحيانًا. وإن تعددت محاولات تقنين المصطلح، فالدلالة لا خلاف حولها، وهو ما يمكن أن يلمحه الباحث فى التراث الشعبى عمومًا، وفى الأغانى والألعاب الشعبية خصوصًا.

من الأسماء التى أخلصت فى هذا المجال : سيد عويس، جمال حمدان، عبدالحميد يونس.. وغيرهم من الأجيال التالية، وبعض العاملين فى المراكز البحثية الرسمية، مثل "المركز الثقافى لثقافة الطفل".. هذه وقفة قصيرة لمظاهر الانتماء فى أغانى وألعاب الطفل.

لعبة "الغراب النوحى"

حيث تتجمع الأطفال، بنات وبنين، إحداهن تقوم بدور الأم، يتعلق بذيل فستانها طابور بقية الأطفال، إلا أحدهم يمثل دور الغراب. يسعى الغراب للانقضاض على أى من الأطفال كرًا وفرًا والخصمان متواجهان. يسعى الغراب لاصطياد طفلاً، وتسعى الأم لحمايته.. ثم يغنى الجميع :

يقول الغراب : "أنا الغراب النوحى.. النوحى / أخطف وأروح سطوحى.. سطوحى

فترد الأم : "وأنا أمهم أحميهم../ إن عشت أربيهم../ وان مت ضربة تقطم رقابيهم!"

لعبة "عسكر وحرامية"

ينقسم اللاعبون إلى فريقين، فريق حرامية، وفريق عساكر. يجرى الحرامية وفريق العساكر خلفهم. ومن يمسك، يتم ربطه (كأنها كلبشات أو أصفاد) إلى أن يتم مسك بقية الحرامية جميعا.. ثم يذهبون إلى القسم (مركز الشرطة).

وغير تلك الأمثلة كثير، تغلب عليها قيم.. تحدى المعتدى، السعى للحصول على الحق، المحبة فى مواجهة الفرقة، مواجهة اللصوص.. وغيرها.

ثانيًا : التعرف المكانى والزمانى لعالم الطفل

المقصود بالتعرف المكانى والزمانى لعالم الطفل، هو مساعدة فضوله الفطرى فى البحث عن المكان والزمان. فقد رصدت الأبحاث التربوية أن الوليد يبدأ منذ شهوره الأولى تلك الرحلة البحثية من خلال حركة العينين والكفين، ثم عندما يحبو ويكتشف الأشياء الخفية أو المختفية تحت الأسره أو أعلى الموائد! ثم بالسؤال "من أين أتيت؟ وأين الله؟".. وغيرها من الأسئلة التى تكشف أهمية البعد الزمانى والمكانى عند الطفل. وهو ما يعد مدخلاً فطريًا لبث روح الانتماء وتعميق الهوية.

لعل التاريخ هو الوعى بالذات الجمعى، من خلال التعرف على أحداث الأيام وردود أفعال الأجداد حيالها.. إذن هو الأحوال المادية المحققة للكلمة المعنوية / الوطن.

ولأنه يضم البعد الزمانى / المكانى فى التجربة الإنسانية، كما يضم فكرة الفعل ورد الفعل وفكرة الصراع، بات التاريخ نبعًا من منابع الإلهام للفن والإبداع.. وكل أشكال التعبير عن علاقة الفرد والجماعة مع بعضهم البعض، فى إطار من الأوشاج السببية، وبث جذور الهوية. ظلت المعرفة التاريخية ملاحقة للملوك والسلاطين والأباطرة والقياصرة، حتى كانت فى القرن التاسع عشر(فى أوروبا) الدراسات التاريخية للشعوب فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية، بعد الثورة الصناعية.

وقد بدت فى الوقت نفسه الدراسات التاريخية من خلال المأثورات الشعبية عن تنوعها.. وهى التى أفرزت وبرزت فيها روح الشعوب، بينما بقيت الوثائق الرسمية للتاريخ من كتب وآثار ومخطوطات، مصادر باهتة. أكد البعض على أهمية الأعمال الفنية التاريخية، كما قال المفكر "جورج لوكاتش" على أهمية الرواية التاريخية تحديدًا.. لأنها تفى بتوفير وجهة النظر التى تحسم القضايا العقائدية والسياسية. وهو فى ذلك يؤكد على معنى توظيف العمل الفنى التاريخى. يخطئ من يعتقد أن التاريخى هو الفنى المشاهد أو المقروء، فالمبدع يلتزم بروح التاريخ لتوظيفه، ولا يصنع تاريخًا أو إعادة لصياغته.

المؤكد الآن أن "التاريخ" أصبح مادة لصناعة تاريخ الأمم وتشكيل مستقبلها، والعمل الإبداعى يوثق علاقتنا بالماضى من أجل المستقبل، وجوهر رؤيته الموضوعية.

يدخل مصطلح "التراث" فى إطار فهم الوطن التاريخ، ترجع أهمية التراث إلى عرف توظيف المصطلح، طالما مازلنا نبحث عن جوهر "الهوية". ولم تتشكل رؤية فكرية حاسمة للفصل بين التاريخى والتراثى. وبالتالى فان تعريف الطفل بالتاريخ والاقتراب من شواهده الأثرية يعد من ضرورات تأصيل ملامح "الهوية" المرغوبة، حيث يشعر الصغير بتواصل الزمان، وتداخله مع الأمكنة والتى قد تبدو غريبة أو غير مألوفة إلا أنها تشى بالتواصل مع الأجداد وان لم يرهم.

ثالثًا : القدرة على اكتساب المعارف والعلوم

وهو ما يلزم معه بداية أن يتعامل الطفل مع كل وسائل المعرفة المتاحة، فى إطار توفير المادة المناسبة التى تزكى المفاهيم العامة والقيم العليا والانتماء.. وهو ما يدعونا إلى وقفة قصيرة لرصد حال أطفالنا مع النشر الإلكترونى (باعتبار الكمبيوتر وشبكة الإنترنت لها المستقبل).

يلاحظ المتابع أن الطفل العربى يتواجد فى النشر الإلكترونى مبعثرًا بين مواقع ذات اهتمامات متعددة ومختلفة.. منها التى تتناول من جانب صحة الأم مع العرض للعديد من الجوانب المعلوماتية الطبية الخاصة بالأم ثم بالطفل فى المرحلة الجنينية (فترة الحمل).. ومنها ما يعرض للحديث عن الطفل، من حيث هو عضوا إضافيًا فى الأسرة، مع الإشارة إلى معلومات تربوية يجب التزام الأبوين بها.. ثم هناك من المواقع العقائدية / الدينية التى تخاطب الطفل، من مفهوم كونه النبتة الأصيلة لإنسان ملتزم دينيًا وأخلاقيًا.. كما توجد المواقع التعليمية التى تخاطب الطفل من خلال المناهج الدراسية والمعلومات المدرسية.. وأخيرًا هناك المواقع التى تقدم الألعاب والتسالى للترفيه بعامة.

أما الحديث عن طبيعة وخصائص المواقع المختلفة التى تتعامل مع الطفل.. فهى إما مواقع ذات اهتمام ثقافى عام، ويمكن نشر ما يخص "الطفل" عليها، باعتباره ثقافة عامة.. مثل موقع "ميدل إيست أون لاين". ومواقع ثقافية / أدبية بالدرجة الأولى، ترعى الأدب والكلمة وتضع من جوانب اهتمامها، نشر ما يخص الطفل إبداعًا ومقالات أدبية.. مثل موقع "القصة السورية". كما توجد مواقع مخصصة للطفل ولا تخاطبه بالدرجة الأولى، بل تسعى لنشر كل ما يتعلق بالطفل : أخبار- إبداع - دراسات - وغيره.. مثل موقع "أدب الأطفال". وأخيرًا هناك المواقع التى تعيد نشر منتج ورقى سبق نشره، مثل مواقع المجلات والدوريات الخاصة بالطفل.. وقد تلاحظ على المواقع التى تتعامل مع الطفل :

- عدم الالتزام الدقيق بخصائص المرحلة العمرية للطفل، وحتى الآن لا يوجد فى المواقع العربية ما يشير إلى المرحلة العمرية الذى يخاطبها.

- مخاطبة الطفل الأنثى والذكر على قدر واحد من التناول.

- تقديم المفاهيم الغربية للأعمال المترجمة للطفل بشخصياته، ومفاهيمه وكأنه الشخصية النموذج الذى يجب على الطفل الاقتداء به.. فشاعت شخصيات "السوبر مان"، "الرجل الأخضر".. وغيرهما بكل ما تحمله من مفاهيم أقل ما يقال فيها أنها فى حاجة تدجين ومواءمة، وتلك المواقع لم تختلف عن بعض المجلات المترجمة للطفل.

- أما عن مضامين الموضوعات التى تقدم للطفل، فهى على شقين إما البعد عن روح الطفل فى التناول مع تقديم المعلومة قبل التناول الفنى.. أو الاهتمام بالمعلومة البعيدة دون القريبة، وربما أنسب مثال على ذلك، تناول وتقديم الشرائع الإسلامية قبل الاهتمام بالسلوك الإسلامى والدلالة القيميةن وهى التى يحتاجها الطفل أكثر.

السؤال مجددًا : من أين نبدأ؟

البداية فى التربية ولا يمكن إغفال التعليم وليس التعليم التقليدى فقط، بل التعليم عن بعد، بتوظيف التقنيات الحديثة لتسهيل العملية التعليمية داخل دور الدراسة، ثم مع توظيفها للحصول على الدرجات العلمية المعتمدة، فمن المعروف أن مرحلة الطفولة (حتى ١٨سنة) هى أهم مراحل التحصيل العلمى، وربما بعدها قد يتجه المرء للحياة العملية.

لذا فالبدء فى تصميم البرامج الثقافية والتربوية والتعليمية للطفل، يعد الخطوة الأعلى لإنجاز تلك المهمة.. مع ضرورة توافر ملمح عام وهام :

- أن يوفر للطفل المعلومة.. وإبراز السلوك القويم والقيم العليا، كل ذلك فى إطار جذاب وشيقن معتمدًا على مراعاة المرحلة العمرية للطفل، مع إعمال التفكير الابتكار لدى الطفل.

- كما أن توفير الاسطوانات أو الأقراص الإلكترونية (الديسكات) بات شائعًا، ولا يجب إغفال أهميته كخامة وكوسيلة قادرة على احتواء كم هائل من المعرفة.

- أن يضم الديسك أو الاسطوانة على التتابع والتوازى.. المادة اللغوية والمادة الفنية أو الرسومات المكملة التوضيحية. وقد وجد المختصون أن الألوان "الأصفر - الأحمر - الأزرق" هى أهم الألوان للطفل حتى سن التاسعة.

- كما يجب أن يكون الخط واضحًا وكبيرًا.

- يجب أن تكون الرسوم مكملة للمعنى، بل ويمكن الاستغناء عن المفردات الكثيرة، مقابل التوضيح بالرسم مع الجمل القصيرة.. هذا بالإضافة إلى إبراز الصورة المقربةن وإهمال الخلفية فى الرسوم التوضيحية، وتوظيف تقنيات الكمبيوتر فى إبراز الصورة من أكثر من جانب أو بأبعادها الطبيعية.

- استخدام التقنيات الحديثة فى إطار من الإخراج الفنى الملائم الجذاب.

- البعد عن النصح والإرشاد وبالعموم عن المباشرة وإصدار الأوامر للطفل، حتى يعتاد الطفل على استنتاج الحقائق.

- أن تغلب روح الطفولة على المادة المنشورة (الملائمة لسن الطفل ولجنس الطفل).

- تقديم المادة الثقافية / العلمية / التعليمية فى إطار يحث الطفل على المشاركة، وتأهيله للتفكير الابتكار، بعيدا عن التلقين.

- أن يصبح التعامل مع جهاز الكمبيوتر ومعطياته (فى النهاية) لعبة بين يدى الطفل.

أخيرًا.. لم يفقد الكتاب التقليدى مكانته (ولن!!)، أما القضية فهى ضرورة الاستفادة من المنجزات التقنية الحديثة، فالإرادة البشرية وحدها هى القادرة على توجيه أى أنواع تكنولوجية تستجد فى ساحة المعرفة.. ولا خيار أمامنا إلا الهرولة نحو إنجاز الطفل العربى القادر على التعامل مع التقنيات الجديدة.

خاتمة :

ولا يبقى إلا البحث الوعى بوسائل التحقيق والتنفيذ.. فلا شك أن للتعليم (المعلم والمناهج و العملية التعليمة) دوره، وأن للثقافة العامة والخاصة (بكل وسائل التثقيف) أهميتها. وفى إطار ذلك تتعاون المؤسسات المؤهلة لتزكية مفاهيم الهوية.. بلا تهويل ولا تهوين.

المصادر والمراجع :

١-ثقافة الطفل العربى - سلسلة كتاب العربى- العدد ٥٠

٢ - فصول عن ثقافة الطفل. بقلم : عبدالتواب يوسف - القاهرة الهيئة المصرية للكتاب سلسلة مكتبة الشباب - عدد ٢٩.

٣- إبراهيم (وفاء)، الوعى الجمالى عند الطفل. القاهرة - الهيئة المصرية للكتاب ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة عام ١٩٩٧م.

٤- الطفل من الخامسة إلى العاشرة، جزآن، بقلم أرنولد جزل - ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد- مراجعة د. أحمد عبدالسلام. القاهرة - الهيئة المصرية للكتاب.

٥- الحصيلة اللغوية.. أهميتها، مصادرها، وسائل تنميتها. بقلم : أحمد محمد المعتوق - الكويت عالم المعرفة و العدد ٢١٢

٦- أغانى المهد.. بقلم درويش الأسيوطى / سلسلة الدراسات الشعبية / هيئة قصور الثقافة.

٧- أغانى وألعاب شعبية للأطفال.. بقلم صفاء عبدالمنعم / سلسلة الدراسات الشعبية / هيئة قصور الثقافة - عام ٢٠٠٦م

٨- الطفل فى التراث الشعبى.. بقلم د. لطفى حسين سليم / سلسلة الدراسات الشعبية / هيئة قصور الثقافة - عام ٢٠٠٤م

٩- شعرنا القديم والنقد الجديد.. بقلم د. وهب أحمد رومية / سلسلة عالم المعرفة / المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت - عام ٢٠٠٣م

١٠- فن الكتابة للطفل.. بقلم أحمد نجيب / سلسلة دراسات فى أدب الطفل / دار الكاتب العربى - عام١٩٩٥م

١١ - من الحداثة إلى العولمة - جزآن.. بقلم ج. تيمونز - أيمى هايت، ترجمة سمير الشيشكلى / سلسلة عالم المعرفة - الكويت - عام٢٠٠٠م

١٢- تطور مجلات الأطفال فى مصر والعالم العربى.. نجلاء علام / هيئة الكتاب المصرية - عام٢٠٠٤م

١٣- طفل القرن الحادى والعشرين.. ذكاء - موهبة - معرفة - جمال.. بقلم السيد نجم / دار الوفاء للطباعة والنشر- عام ٢٠٠١م